التَّوسُّل إلى الله تعالى

بِجاه سيّدنا محمد ﷺ

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار)

من الصفحة ١٤٥ حتى الصفحة ١٧٦

ومن كتاب (حول تفسير سورة الإنسان)

من الصفحة ١١١ حتى الصفحة ١١٥

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناء على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
ـ المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

بحث التوسل والاستغاثة

المراد بالتوسل هنا أن يَتَّخِذَ العبد وسيلة ـ أي : واسطة ـ إلى الله تعالى في دعائه أو رجائه ، لِمَا ثبت لتلك الواسطة عند الله تعالى من الفضل ، أو الحق ، أو الجاه ، أو المنزلة ، وإجابة الدعاء ، وجميع ذلك جائز شرعاً ، لما دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وآثار الصحابة ، وإجماع الأمة .

أما أدلة الكتاب :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

فقد أمر الله تعالى بترك المحرمات والمنهيات ، وابتغاء الوسيلة بالأعمال الصالحة الفاضلة ، المقربة إليه سبحانه .

وقد شرع التوسل بالأعمال الصالحة ، رجاء الثواب وإجابة الدعاء ، قال الله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ فقد توسلوا إلى الله تعالى بإيمانهم أن يغفر الله تعالى لهم ، وهذا ظاهر لا يُختلف فيه ، ولكن مَن تأمل في الآية الكريمة يتبين له أن الآية عامة في وسائل الأعمال الصالحة ، والعمال الصالحين ـ أي : الأعمال الفاضلة ، والذوات الفاضلة ـ لأنه سبحانه أمر بالتقوى ، وابتغاء الوسيلة ، والتقوى عبارة عن : فعل المأمورات ، واجتناب المنهيات ، فإذا فَسَّرنا ابتغاء الوسيلة بالأعمال الصالحة ، صار الأمر فيه تكرار

وتأكيد ، ولكن إذا أُرِيْدَ بالوسيلة الذوات الفاضلة كان تأسيساً ، وهو مقدم على التأكيد .

وَقَد ذكر العلامة البغوي القول بالعموم في آية : ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

وقد ورد إطلاق الوسيلة على الذوات الفاضلة ، ففي (فتح الباري) أن الزبير بن بكار رَوى بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استسقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام الرمادة[1] بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، فذكر الحديث ، وفيه : فخطبَ الناسَ عمرُ رضي الله عنه فقال : (إن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس رضي الله عنه ما يَرى الولد للوالد ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في عمِّهِ العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله) .

وفيه : (فما رجعوا حتى سقاهم الله تعالى) .

وأخرجه البلاذري عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه .

فكان العباس رضي الله عنه وسيلتهم إلى الله تعالى ، حتى إنه صرح بذلك لَمَّا اسْتَقَىٰ لهم حيث قال : (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يُكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة : فاسقنا الغيث) فأرخت السماء مثل الجبال ، حتى أخصَبت الأرض وعاش الناس[2] .

---

(١) الرّمادة بفتح الراء ، سمي العام بها : لِمَا حصل من شدة الجَدْبِ ، فاغبرت الأرض من عدم المطر .

(٢) فتح الباري وعزاه إلى الزبير بن بكار بإسناده .

فقد صرح العباس رضي الله عنه أن الناسَ جعلوه وسيلتهم إلى الله تعالى .

وقال الإمام مالك رضي الله عنه لأبي جعفر : (وَلِمَ تصرف وجهك عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وهو وسيلتك ، ووسيلة أبيك آدم عليه السلام يوم القيامة) كما سيأتي ذلك محققاً بإسناده .

ومن الأدلة على مشروعية التوسل قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ فليتأمل العاقل سِرّ قوله تعالى : ﴿ جَآءُوكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ يفهم من ذلك صريح مشروعية اتخاذه وسيلة إلى الله تعالى ، ولولا ذلك فما الفائدة في قوله : ﴿ جَآءُوكَ ﴾ وهذا عام في حياته الدنيوية وبعد وفاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، كما سيأتي ذلك بأدلته إن شاء الله تعالى .

وأما الأحاديث النبوية الدالة على مشروعية التوسل فهي كثيرة نذكر بعضاً منها :

الدليل الأول : روى الترمذي والنسائي والبيهقي ، وصححه الحاكم وقال : على شرطهما ، عن عُثمان بن حُنيف رضي الله عنه : أن رجلاً ضريراً جاء إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يَكشف عن بصري . وفي رواية : أن يعافيني .

فقال : « إنْ شِئْتَ دَعَوتُ ، وإن شِئْتَ صَبَرتَ فهو خير لك » .

قال : فادعه .

فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنِّي

أسألك ، وأتوجه إليك ، بنبيك محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ لي ، اللهم فشفعه فِيَّ » .

فتوضأ ثم صلّىٰ ركعتين . جاء في رواية البيهقي : (فقام وقد أبصر) .

فهذا الحديث يدل على مشروعية التوسل بذات النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فإن الضرير هو الذي دعىٰ وتوجه إلى الله تعالى برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وليس ذلكَ خاصاً بالضرير ، بل هو عام له ولغيره ، في حياته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته ، يدل على ذلك الزيادة التي رواها ابن خيثمة ، حيث قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم للأعمى : « فإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك » وهي زيادة من ثقة مقبولة .

وأيضاً فإنّ راوي الحديث وهو عثمان بن حنيف رضي الله عنه حمله على العموم ، حيث عَلَّم رجلاً آخر كانت له حاجة ، فدعا بهذا الدعاء فَقُضِيَتْ حاجته ، وكان ذلك بَعد وفاة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وَفَهْم الراوي حجة في المراد من الحديث .

وأيضاً فإن أئمة الحديث فهموا من هذا الحديث العموم ـ يعني : إن التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلم مشروع في حياته ، وبعد وفاته ، في سائر الحاجات ـ فقد ذكره الترمذي ، والحاكم ، والبيهقي في كتاب الدعوات ، لأنه مِن جملة الأدعية المشروعة ، وذكره النووي في باب أذكار صلاة الحاجة على أنه مِنْ جملة الأذكار التي يُدْعَىٰ بها عند الحاجة .

الدليل الثاني: روى البيهقي، والطبراني في (المعجم الكبير والصغير) عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلاً كان يَختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة ، فكان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر إليه في حاجته ، فَشكىٰ ذلك لابن حنيف رضي الله عنه فقال : اِئت الميضأة ـ أي : محل الوضوء ـ فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيقضي لي حاجتي ـ وتذكر حاجتك ـ وَرُح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل ، فصنع ما قال عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه فجاءه البواب حتى أخذ بيده ، فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أمير المؤمنين ، فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ؟ . فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرتُ حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فَأْتِنَا . ثم إنّ الرجل خَرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه ـ أي : الذي علمه دعاء الحاجة ـ فقال : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ، ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فِيَّ .

فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه : والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير ، فشكا ذهاب بصره . الحديث كما تقدم . وسنده لا بأس به ، كما ذكره البيهقي ، والطبراني ، والحافظ السبكي ، والقسطلاني ، وغيرهم .

الدليل الثالث من السنة على إثبات التوسل بالذات الفاضلة : توسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس عم النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنه ، وأمْرُه الناسَ أنْ يَتَّخِذوا العباس وسيلةً إلى الله

تعالى في سُقياهم .

فقد روى البخاري وغيره ، عن أنس رضي الله عنه أَنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحطوا اسْتَسْقىٰ بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنّا نتَوَسَّل إليك بنبينا صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فتسقينا ، وإنا نَتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون .

فهذا صريح في التوسل بالذوات الفاضلة .

وقد يقول القائل : إنّ هذا توسل بدعاء العباس رضي الله عنه .

قلنا: لو كان المقصود الدعاء لدعاه عمر رضي الله عنه، ولكن المقصود الداعي ، وهو العباس رضي الله عنه باعتبار نسبته إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وقرابته منه ، صرح بذلك عمر رضي الله عنه وعبر عن ذلك العباس رضي الله عنه .

فقد ورد أنَّ عمر خطب فقال : (إن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كان يَرى للعباس ما يرى الولد للوالد ، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في عمه العباس ، واتخذوه وسيلة إلى الله) .

وفي ذلك يقول العباس رضي الله عنه : (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يُكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك) إلخ كما تقدم .

وهذا كما روى البيهقي في (الدلائل)[1] عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل أعرابي إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فقال :

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : وإسناده وإن كان فيه ضعف لكنه يصلح للمتابعة .

يا رسول الله أتيناك وما لنا بعير يئط ، ولا صبي يغط . ثم أنشده شعراً يقول فيه :

وليس لنا إلّا إليك فرارُنا وأين فِرار الخلق إلّا إلى الرسل

فقام صلّىٰ الله عليه وآله وسلم يجر رداءه ، حتى صعد المنبر ، فرفع يديه إلى السماء فقال : « اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً ، مَرِيْعاً ، غدقاً ، طبقاً ، نافعاً غير ضار ، عاجلاً غير رائث ، تملأ به الضرع ، وتُنْبِتُ به الزرع ، وتُحيي به الأرض بعد موتها » .

قال أنس رضي الله عنه : فما رَدَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأبراقها ، ثم قال ﷺ : « لو كان أبو طالب حياً لَقَرَّت عيناه ، مَنْ يُنْشِدُنا قوله ؟ »

فقام علي رضي الله عنه فقال : يا رسول الله كأنك أردت قوله :

وأَبْيَضَ يُستسقىٰ الغمام بوجهه ثِمَالُ اليتامى عصمة للأرامل

فقد أقر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قول أبي طالب : يُسْتَسْقَىٰ الغمام بوجهه ، وفي ذلك صريح التوسل بوجه النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

الدليل الرابعُ على جواز التوسل بالذوات الفاضلة :

توسل الصحابة رضي الله عنهم واستسقاؤهم ، وتبركاتهم ، وتمسحاتهم في سائر كرباتهم ومهماتهم بآثار النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، والتماسهم الخير والبركة في ذلك .

وهذا أمر ثابت في الأحاديث الصحيحة ، شائع بين الصحابة والتابعين .

جاء في (صحيح) مسلم عن عبد الله مولى أسماء رضي الله عنها في حديث طويل وفيه : فقالت أسماء رضي الله عنها : هذه جبة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فَأُخْرِجَت إليّ جبة طَيالِسَة كِسْرَوانية ، لها لبنةُ ديباجٍ ، وفَرجيها مَكْفُوفين بالديباج ، فقالت : هذه كانت عند السيدة عائشة رضي الله عنها حتى قُبِضَت ، فلما قُبضت قبضتها ، وكان النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم يَلبسها ، فنحن نَغْسلها للمرضى يُستشفىٰ بها .

فهذا يدلك على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يستشفون بجبة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، ومعنى ذلك : أنهم يطلبون الشفاء من الله تعالى ، متوسلين بفضل هذه الجبة الشريفة عند الله تعالى ، فإذا صح التوسل بجبته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ؛ فكيف لا يصح التوسل بذاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ؟!! .

وفي (الصحيحين) من حديث صُلح الحديبية :

فقال : والله ما تنخم رسول الله نُخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده .

فكانت الصحابة يتبركون بنخامته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وهو طلب البركة من الله تعالى بفضل هذه الآثار عند الله تعالى .

وفي (صحيح) البخاري عن ابن سيرين رضي الله عنه قال : قلت لِعَبِيْدَةَ : عندنا مِنْ شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أصبناه مِنْ قِبَلِ أنس رضي الله عنه .

فقال : لأن تكون عندي شَعْرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم لما حَلَق رأسه كان أبو طلحة أوّلَ مَنْ أخذ شعره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم . رواه البخاري .

وفي صحيح مسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم والحلاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل .

فكانوا يحتفظون بشعره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم للتبرك ، والاستشفاء بها ، وهذا التوسل بعينه .

وقد جاء التصريح في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن موهب قال : أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوجة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بقدح من ماء ، فيه شَعر مِنْ شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وكان إذا أصاب الإنسان عَيْنٌ أو شيء بعث إليها مَخْضَبه .

فكانوا يبعثون إلى السيدة أم سلمة رضي الله عنها بإناء فيه ماء ، فتخضخض الجُلْجُل الذي فيه مِن شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، يستشفون بذلك ـ أي : يطلبون الشفاء من الله تعالى ، بفضل هذا الأثر عند الله تعالى ـ وهذا هو عين التوسل بالذات .

وفي (الصحيحين) عن سهل بن سعد رضي الله عنه في البردة التي استوهبها من النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فلامه الصحابة على طلبها فقال : إنما سألته إياها لتكون كَفَني . وفي رواية فقال : رجوت بركتها حين لبسها النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لَعَلي أُكَفَّنُ بها .

وفي (صحيح) مسلم ، عن أم سُليم رضي الله عنها أنها فَتحت عَتِيْدَتَهَا ـ أي : صندوقاً صغيراً ـ فجعلت تُنشف فيه عرق النبي صلّىٰ الله عليه وآله

وسلم ، فتعصره في قواريرها ، في إناء من زجاج .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم لَمّا استيقظ من نومه : « ما تصنعين يا أم سليم » ؟ .

فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا .

فقال : « أصبت » .

فقد أقر رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم التوسل بذوات آثاره الشريفة ، فكيف لا يجوز التوسل بذاته الشريفة صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وفي البخاري عن أبي جُحيفة رضي الله عنه قال : (أتيت النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وهو في قبة حمراء من أَدَم، ورأيت بِلالاً أخذ وَضوء النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، والناس يبتدرون الوَضُوء ، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به ، وَمَن لم يصب منه شيئاً أخذ من بَللِ يدِ صاحبه) يعني : للبركة والاستشفاء .

فكانوا يحرصون على آثاره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم تبركاً واستشفاء واسترحاماً .

فكان أنس يحتفظ بنعل النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم عنده ، كما في (صحيح) البخاري عن ابن طَهْمان قال : أخرج إلينا أنس بن مالك رضي الله عنه نعلين لهما قِبَالان ، فقال ثابت البناني : هذه نعل النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وقد ثبت أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كانَ يضع في قَلَنْسوته من شعرات النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فسقطت قلنسوته في بعض حروبه ، فشد عليها يبحث عنها ، حتى أنكر عليه بعض الصحابة مِنْ كثرة

مَنْ قتل بسببها من الأعداء ، فقال خالد : لم أفعل ذلك بسبب القلنسوة ، بل لما تضمنته من شعره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لئلا أسلب بركتها ، وتقع في أيدي المشركين .

فهذا خالد رضي الله عنه يستنصر على الأعداء بفضل شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وأوصىٰ سيدنا معاوية رضي الله عنه أن يُجْعَل مِنْ شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم تحت لسانه حين يموت .

وجاء في (صِفَة الصفوة) : أن ولداً للفضل بن الربيع أعطىٰ للإمام أحمد ـ وهو في الحبس ـ ثلاث شعرات ، فقال : هذا من شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فأوصى الإمام أحمد عند موته أن يُجعل على كل عين شعرة ، وشعرة على لسانه . فَفُعِل ذلك به عند موته .

فهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة يتوسل إلى الله تعالى ، أن يغفر له ويرحمه ، بفضل شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وجاء في فضائل الإمام البخاري أنه كان معه شيء من شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فجعله في ملبوسه . ذكر ذلك في (مقدمة فتح الباري) وهذا توسل من الإمام البخاري بشعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، ابتغاء الخير والبركة .

وفي (صحيح) مسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم إذا صلّىٰ الغداة ـ صلاة الفجر ـ جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فلا يأتونه بإناء إلا غمس رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فيه يده ، وربما جاءه في الغداة الباردة فيغمس يده فيه) فكانوا يتبركون بآثار الماء الذي لاقىٰ يد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ،

ويستشفون بذلك ، وَيُقِرُّهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : كانت أم سُليم رضي الله عنها تبسط لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم نِطعاً فَيقيل عندها ـ ينام ضحوة عندها ـ فإذا قام أخذت من عَرَقِهِ وَشعره فَجَعَلَتْهُ في قارورة ـ زجاجة ـ ثم جمعته في سُكٍّ ، فلما حُضِرَ أنس أوصىٰ أن يُجْعَلَ في حنوطه من ذلك السُّكِّ .

فهذا أنس رضي الله عنه يوصي أن يُجعل في حَنوطه بعد موته مِن شعر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وعرقه الشريف ، متوسلاً بذلك إلى الله تعالى أن يغفر له ويرحمه .

فإنْ قال القائل إنَّ هذه الأحاديث لا تدل على التوسل بالذوات ، إنما هي من باب التبرك فقط .

قلنا في الجواب : إنَّ هذا التمسح من الصحابة ، وهذا الحرص منهم على آثار رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وهذا الإيصاء منهم بجعل ذلك في حنوطهم وأكفانهم ؛ هذا كله إمَّا أن يكون عَمَلاً أجْوف لا معنىٰ له ، ولا بغية لهم فيه ، فيكون عملاً عَبَثاً لَعِباً ، وحاشا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أنْ يُقر أصحابه على عَبث أو لعب ليس فيه غرض صحيح ، فإذاً لا بد وأنَّ لهم غرضاً وغاية يطلبونها بذلك التمسح بالآثار ، وهذا هو التبرك ، أو الاستشفاء ، أو الاسترحام ، أو الاستنصار أو نحو ذلك مما جاء مصرحاً به ، ولا شك أنَّ معنىٰ التبرك بالأثر والاستشفاء به ، أو الاسترحام به ؛ معنى ذلك هو طلب البركة من الله تعالى ، وطلب الشفاعة من الله تعالى ، وطلب الرحمة من الله تعالى بسبب فضل هذه الآثار الشريفة المحمدية عند الله تعالى . وهذا هو حقيقة

التوسل بالذات .

هذا وقد ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما من الصحابة ، وسعيد بن المسيب من أَجَلِّ التابعين ، ويحيى بن سعيد شيخ الإمام مالك ، وكذلك ثبت عن الإمام أحمد ، كل هؤلاء ثبت عنهم أنهم تَمَسَّحوا بمنبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم تبركاً به ، لكونه محل جلوس المصطفى صلّىٰ الله عليه وآله وسلم . كما ثبت عن الإمام أحمد أنَّه سُئِل عن تقبيل قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وتقبيل منبره فقال : لا بأس بذلك .

وفي (مسند) الإمام أحمد ، عن جعفر بن محمد قال : كان الماء يَستنقع في جفون النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم حين غسلوه بعد موته ، فكان علي رضي الله عنه يحسوه ـ أي : يحسو ذلك الماء من بركاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ـ .

وأما الدليل على جواز التوسل بحقه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم :

فقد ورد في الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « مَنْ خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاي هذا ، فإني لم أخرج أشَرَاً ، ولا بطراً ، ولا رياء ، ولا سُمعة ، خَرَجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فَأسألك أنْ تُعيذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . أقبل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألف ملك » رواه ابن ماجه وهذا لفظه ، ورواه الطبراني والإمام أحمد . وبهذه المتابعات يزول ما في بعض رواته من ضَعف ، ولذلك حَسّنه جماعة من أئمة الحفاظ .

وروى الطبراني ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما ماتت

فاطمة بنت أسد رضي الله عنها أم علي رضي الله عنه ، دخل عليها رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فجلس عند رأسها فقال : « رحمك الله يا أمي ، كنت أمي بعد أمي ، تجوعين وتُشبِعيني ، وتعرين وتكسيني ، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني ، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة » ثم أمر أن تُغسَل ثلاثاً ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور ، وضعه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بيده ، ثم خلع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قميصه فألبسها إياه ، وكفنها ببرد فوقه ، ثم دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود رضي الله عنهم يحفرون، فحفروا قَبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بيده ، وأخرج ترابه ، فلما فَرغ دخل فيه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فاضطجع فيه ، وقال : « الله الذي يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، وَلَقِّنْهَا حُجَّتها ، وَوَسِّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعاً ، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضي الله عنهم .

قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، غير روح بن صلاح ، وقد وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف . أي : فيه ضعف محتمل ليس بالشديد .

وقول الحنفية رضي الله عنهم : وكُرِهَ بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك ، أو بحق البيت ، لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فينبغي حمل الكراهة على مَنْ كان يتوهم أنَّ للعبد حقاً واجباً على الله تعالى ، كما هو بدعة المعتزلة . وأما إذا أريد بالحقِّ الحقُّ الذي حَقَّه الله تعالى على

نفسه تَفَضُّلاً ، كما قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمثال ذلك ، وهذا هو الذي دَلَّت عليه الأحاديث السابقة ، فإنه لا مانع منه ، لأنه تَوسل إلى الله تعالى بِحَقٍّ أوجبه الله تعالى على نفسه .

وأما دليل التوسل بجاهه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : فقد أخبر الله تعالى عن وَجاهة سيدنا موسى وعيسى فقال في موسى : ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ، وقال في عيسى : ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ولا شك أنَّ جاه الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أعظم ، فإنه وَجْهُ جميع الأنبياء وإمامهم صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين .

التوسل بالنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كما هو ثابت في حياته الدنيوية، كذلك ثابت بعد انتقاله إلى الحياة البرزخية :

فإن قال قائل : سَلَّمْنا أنَّ التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ثابت ، ولكنه خاص في حال الحياة الدنيوية ، وأما بعد ذلك فلا يصح التوسل به .

قلنا في الجواب : إنّ تخصيص ذلك في حال حياته الدنيوية لا دليل عليه ، وإنما تُثْبِتُ الأدلة جواز التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في جميع أحواله ، في حياته الدنيوية ؛ وبعد وفاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم . ودليل ذلك :

أولًا ـ حديث عثمان بن حُنَيْف رضي الله عنه المتقدم، فإنه عَلّم الرجل الذي كانت له حاجة عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فإنه علّمه أَنْ يدعو فيقول : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، نَبيّ الرحمة » إلى تمام الحديث ، وذهب الرجل ودعا

به ، فقضيت حاجته ، وكان ذلك بعد وفاة الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

ثانياً ـ إنَّ تبرك الصحابة والتابعين ، واستشفاءهم بآثار النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم منها ما كان في حياته الدنيوية ، وكثير منها كان بعد وفاة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، كما تقدم في الأحاديث ، فإنَّ المانع يَزْعم أنَّ الميت لا يُتوسل به ، لأنه لا روح له . **قلنا له** : قد توسل الصحابة بآثاره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم مع أنها لا روح لها ، بل هو حي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في قبره كما يأتي .

ثالثاً ـ تَقَدَّمَ في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها كيف توسل النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بحق الأنبياء قبله ، وذلك صريح في التوسل بعد الوفاة .

رابعاً ـ إنَّ التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في سائر أحواله وأكوانه ، هو الأمر الذي فهمه الإمام مالك ، وفهمه أهل الصفاء والنقاء من العلماء والأتقياء . فقد قال القاضي عياض : واعلم أنّ حرمة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بعد موته ؛ وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وذكر حديثه وسنته ، وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله ، وتعظيم أهل بيته وأصحابه ، ثم روى بإسناده إلى ابن حُميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإنَّ الله تعالى أَدَّبَ قوماً فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية ، ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾

الآية ، وَذَمَّ قوماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية . وإنّ حُرمته مَيتاً كحرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ؟

فقال الإمام مالك : ولِمَ تَصْرِف وجهك عنه ، وهو وَسِيلَتُكَ وَوَسِيْلَةُ أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ .

وهذه المناظرة بين الإمام مالك وأبي جعفر ذكرها التقي السبكي ، والقسطلاني ، والسمهودي ، وابن حجر في الجوهر المنظم ، وغيرهم ، وسندها حسن .

وروى ابن عساكر في (تاريخه) ، وابن الجوزي في (مثير الغرام) عن العتبي ، أن أعرابياً جاء إلى قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقرأ الآية ، وقال : وقد جئتك مُستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير مَنْ دُفنت في الترب أعظمُهُ فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي : فغلبتني عيناي ، فرأيت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في النوم ، فقال : يا عتبي اِلحق الأعرابي وَبَشِّرْهُ بأن الله تعالى غَفَر له .

وهذه القصة ذكرها ابن كثير في (تفسيره) بإقرارها ، وذكرها كثير من المؤرخين : كابن خلكان وغيره ، وتلقاها العلماء بالقبول ، وذكرها أئمة المذاهب في المناسك مستحسنين لها ، ففيها نداء النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وطلب الشفاعة منه وهو في قبره الشريف ، فلو كان نداؤه والتوسل به بعد الوفاة محذوراً لأنكروها ، وما قرروها في كتبهم .

وقال القسطلاني والسمهودي : رَوى أبو سعيد السمعاني ، عن علي رضي الله عنه ، أَنَّ أعرابياً قَدِم علينا بعدما دُفِنَ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام ، فرمى بنفسه على قبره ، وحثى من ترابه على رأسه ، وقال : يا رسول الله قلت فَسَمِعْنا قولك ، وَوَعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أُنزل إليك : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ وقرأ الآية ، وقال : قد ظلمت نفسي ، وجئتك تستغفر لي . فنودي من القبر : قد غُفِرَ لك .

وهذه القصة ذكرها القرطبي في تفسيره عند الآية .

وحكاية العلماء والمحدثين لهذه الأخبار تَثْبيت لصحتها ، وتثبيت لعقيدتها ، إذ لو كان شركاً لأنكروه وما أقروه ، فإقرار ابن كثير والقرطبي وغيرهما لهذه الأخبار هو إقرار بصحة اعتقادها . إذ لو كان مُنكراً لأنكروه .

خامساً ـ قال الإمام الدارمي في (سننه) باب ما أكرم الله تعالى نبيه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بعد موته . ثم أسند إلى أبي الجوزاء قال : قُحِطَ أهل المدينة قَحْطاً شديداً ، فشكوا إلى السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : انظروا قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فاجعلوا منه كوى ـ أي : نوافذ ـ إلى السماء ، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف .

قال : ففعلوا ، فَمُطِرْنا مطراً ، حتى نبت العُشب ، وسمنت الإبل ، حتى تفتقت من الشحم ؛ فَسُمِّيَ عام الفتق .

فقد أمرت السيدة الصديقة رضي الله عنها بفتح الكوى إلى السماء استمطاراً ، ولم يُنكر عليها أحد من الصحابة والتابعين مع كثرتهم ، فلو كان أمراً فيه شرك أو نحوه لما أمرت به الصديقة ، بل لو كان شِركاً لما رواه الدارمي بإقرار ، بل هذا الصنيع من الصديقة لا يُدْرَك بالرأي والاجتهاد ، فلا بد وأنها مُستندة إلى دليل ثابت عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وروى الحاكم في (المستدرك) أنَّ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه غزا قسطنطينية في خلافة معاوية رضي الله عنه، فقتل هناك ، ودفنه المسلمون في أصل سُور البلد .

قال الراوي : فالروم يزورون قبره ، ويستقون به إذا قُحِطُوا .

وجاء في (صفة الصفوة) أن أحمد بن الفتح ، رأى بشر بن الحارث الحافي في المنام ، فسأله عن معروف الكرخي رضي الله عنه فقال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إنَّ معروفاً لم يَعْبد الله شوقاً إلى جنته ، ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى ، فَمَنْ كانت له إلى الله حاجة فليأت قبره ، وليدع ، فإنه يُستجاب له إن شاء الله تعالى .

قال ابن الجوزي : وقبر معروف ظاهر يُتَبَرَّك به في بغداد ، وكان إبراهيم الحربي صاحب الإمام أحمد يقول : قبر معْروف الترياق المجرب .

وجاء عن عز الدين بن جماعة في كتاب (أنس المحاضرة) عن

علي بن ميمون قال : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : إني لأتبرك بأبي حنيفة ، وأجيء إلى قبره في كل يوم ـ أي : زائراً ـ فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين ، وجئت وسألت الله تعالى الحاجة عنده ، فما تَبْعُدُ عني حتى تَنْقَضِيَ .

فهذا يدلنا على صحة التوسل بالصالحين في الحياة وبعد الممات .

وقد يقول القائل : لو كان التوسل بالرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بعد الوفاة جائزاً ، لتوسل به عمر رضي الله عنه ولم يتوسل بالعباس رضي الله عنه .

قلنا في الجواب :

أولًا ـ تَرك فعل الشيء ، بلا نهي عن ذلك الشيء ، لا يدل على عدم جواز الفعل ، فكم من أمور لَم يفعلها بعض الصحابة مع أنهم صرحوا بجوازها ، وأقروها إذا فُعلت ، ومن ذلك قضية التوسل بالنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بعد الوفاة ، فإن عمر رضي الله عنه نفسه أقره ولم يُنكره ، فقد روى البيهقي ، وابن أبي شيبة ، عن مالك الدار رضي الله عنه ، وكان خازن عمر رضي الله عنه قال : أصاب الناس قَحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجاء رجل إلى قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم فشكى له فقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، فإنهم قد هلكوا . فأتاه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في المنام فقال : ائت عمر ، وأقرئه السلام ، وأخبره أنهم مُسقون ، وقل له : عليك الكيس الكيس .

فأتىٰ الرجل عمر رضي الله عنه فأخبره ، فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال : يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه .

وقد صحح الحافظ في الفتح إسناده وقال : وقد روى سيف في

الفتوح أن الذي رأى في المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة رضي الله عنهم .

ثانياً ـ إن توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما ليس هو عدولاً عن التوسل برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، بل هو متضمن للتوسل برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لأنه إنما توسل بالعباس لأنه عم النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فهو يتوسل بهذه القرابة كما صرح بقوله : (وإنَّا نتوسل إليك بعم نبيك) ولما كان موقف الاستسقاء يتطلب الدعاء من الإمام حتى يسمعه الناس ، ويحصل لهم خشعة وانكسار ، وذل وافتقار إلى الله تعالى ، فلذلك أناب العباس في الدعَاء بدلاً عنه ، فهذا العمل دليل على حقيقة التوسل بالنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، حيث قال : (وإنا نتوسل إليك بعم نبيك) أي : فأجب دعاءه لفضل نبيك صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وأيضاً فيه إقامة شعيرة الاستسقاء ، والتضرع والدعاء ، والضجيج والرجاء ، وذلك بقيام العباس داعياً بدلاً من عمر رضي الله عنهما .

ثالثاً ـ إن الصحابة بإجماع منهم ، قد توسلوا بآثار النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم المنفصلة عنه من : شعره ، وأظافره ، ونخامته ، وهي ليس لها روح ، فكيف يقال : إنَّ عمر لا يجيز التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ، مع أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم حَيٌّ في قبره ـ كما سيأتي ـ كلا وحاشا عمر رضي الله عنه من ذلك ، وإنما هو افتراء على عمر رضي الله عنه .

أبحاث الاستغاثة

الاستغاثة هي : طلب العبد الإغاثة لِشِدَّةٍ وقع فيها ، أو ضائقة أَلَمَّتْ

به ، أو كُربة اعترته ، أو نحو ذلك ، فهو يطلب مَنْ يُسعفه وَيدفع عنه ما حَلَّ به .

ومن المقرر أن الإغاثة والعون والإمداد ، كل ذلك هو من الله تعالى على الحقيقة والاستقلال ، ولكن هذا لا يُنافي أن الله تعالى جعل لذلك أسباباً ؛ ووسائط أعدها لذلك ، وإنكار الأسباب التي نصبها الله تعالى فيه تعطيل الحكمة ، بل فيه تحديدُ القدرة . تعالىٰ الله عن ذلك عُلُواً كبيراً .

ولذلك فإنّ القرآن الكريم أضاف كثيراً من الأفعال إلى الله تعالى وحده ، ومع ذلك نَسَبها في آيات أخرى إلى الأسباب والوسائط .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ فنسب الإحياء إليه ، ومع ذلك قال : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فنسب الإحياء إلى السبب ، وهو العبد المخلوق .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ فنسب النصر إليه على الحقيقة ، ونسبه للمخلوق على السببية ، فأيّ مانع إذا قلت : يا فلان ٱنصرني ، وفي الحديث : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » الحديث .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ فنسب الرزق إلى المخلوق لأنه سبب في ذلك .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ،

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ .

وقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » فَبَيَّن أنّ قضاء الحاجات ، وأن الإعانة كل ذلك من الله تعالى على الحقيقة ، ومع ذلك أضافها الله تعالى إلى السبب فقال : ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فَبين أنه يجوز للعبد أن يسأل العبد ، وأن المسؤول ينبغي أن لا يَنهر .

وقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » فندب العباد أن يُعِيْنَ بعضهم بعضاً ، فيجوز للعبد أن يستعين بأخيه .

وهكذا الإغاثة هي من الله على الحقيقة ، فهو سبحانه المغيث ، ومع ذلك نسب الإغاثة إلى العبد ، كما ورد في حقوق الطريق : « وأن تُغِيْثُوا الملهوف ، وتهدوا الضال » رواه أبو داود ، وهذا يجري في كثير من الأفعال . وفيما ذكرنا كفاية .

فإن قال قائل : سَلّمْنا الإغاثة والنصر وغير ذلك ، سلمنا أنها تُضاف إلى السبب ، ولكن هل يَجوز طَلب الإغاثة والإعانة والنصر ونحوها من السبب ، باعتبار أنه سبب وواسطة في ذلك .

فالجواب : إن ذلك جائز بأدلة ثابتة :

أولًا ـ أجمع أهل الموقف كلهم على جواز ذلك ، كما ورد في (صحيح) البخاري ، في كتاب الزكاة ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قال : « الشمس تدنو يوم القيامة ، حتى يَبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد صلّىٰ الله عليه

وآله وسلم » الحديث .

ثانياً ـ جاء في (الصحيح) في قصة هاجر أم إسماعيل، لما أدركه العطش، فَجَعَلَتْ تسعىٰ في طلب الماء، فسمعت صوتاً ولا ترى شخصاً فقالت : (أغِثْ إن كان عندك غَوثٌ) . فلو كان طلب الغوث شِركاً لما أقره رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم، ولما نقله الصحابة والمحدثون .

ثالثاً ـ ورد في الحديث، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة ، فليناد : يا عباد الله احبسوا ، فإنّ لله عز وجل في الأرض حاصِراً سيحبسه » رواه ابن السني، والحاكم ، وأبو عوانة والبزار بسند صحيح .

قال الإمام النووي : حَكىٰ لي بعض شيوخنا الكبار بالعلم : أنه انفلتت له دابة ـ أظنها بغلة ـ وكان يَعرف هذا الحديث ، فقاله فحبسها الله عليهم في الحال ، وكنت أنا مَرة مع جماعة ، فانفلتت مِنا بهيمة ، وعجزوا عنها ، فقلته فوقفت في الحال بغير سبب ؛ سوى هذا الكلام .

وروى الطبراني ، عن عتبة بن غزوان ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا ضلّ أحدكم ـ أي : عن الطريق ـ أو أراد عوناً ، وهو بأرض ليس بها إنس فليقل : يا عباد الله أعينوني . ثلاثاً ، فإن لله عباداً لا يراهم » .

ونقل في (شرح الأذكار) عن بعض العلماء الثقات أنه قال في هذا الحديث : حديث حسن، يحتاج إليه المسافر .

ونقل ابن مُفلح الحنبلي في كتاب (الآداب الشرعية) عن عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي ـ أحمد بن حنبل ـ يقول : حججت خمس حِجج ، فضللت عن الطريق ، وكنت ماشياً ، فجعلت

أقول : يا عباد الله دُلُّونا على الطريق ، فلم أزل أقول ذلك ، حتى وقفت على الطريق . أي : حتى ٱهتدىٰ إلى الطريق . فدل هذا على جواز الاستغاثة والاستعانة بالمخلوق ؛ على اعتبار أنه سبب .

رابعاً ـ جاء في (الصحيحين) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : (خرجنا مع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم إلى خيبر فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر : يا عامر ألا تُسمعنا مِنْ هُنيهاتك ـ وكان عامر رجلاً شاعراً ـ فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا وثَبِّتِ الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عَولوا علينا

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « مَنْ هذا السائق » ؟ .

قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : « يرحمه الله » .

فقال رجل من القوم ـ أي : عمر رضي الله عنه ـ وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به) الحديث .

فانظر يا هذا ، لقد طلب عمر من رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أن يمتعهم بعامر ـ يعني : أن يُطيل عمره فيبقى حياً بينهم ، يتمتعون به ـ ولم يقل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : لا تقل هذا يا عمر ، أو لا تشرك يا عمر ، بل أقره رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، مع أن الذي يُطيل العمر على الحقيقة ، وَيُمتع بالآجال هو الله تعالى ، قال

تعالى : ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ نعم . ولكن الله تعالى نَصَب أسباباً لا تنكر ، فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أعظم الأسباب ، وأقوى الوسائط في جميع الخيرات والمبرات ، من الإغاثة والإعانة والنصر ، والإمداد والسعادة ، وما هنالك أعظم واسطة في ذلك ؛ بل في خير الدنيا والآخرة منه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وأنت تعلم أنّ الرحمة شاملة لجميع الخيرات والسعادات ، الظاهرة والباطنة ، في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بوجه نبيك سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، أن تجعلني مِنْ خاصة خاصة أتباعه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ؛ ظاهراً وباطناً . والحمد لله رب العالمين .

ولقد كان والدي الكريم قَدّس الله روحه ، وَنَوّر ضريحه ، يعتبر أصرح دليل على صحة الاستغاثة برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم هذا الحديث ، وهو قول عمر رضي الله عنه : (هلا أمتعتنا به يا رسول الله) فإن في ذلك معنى السؤال والطلب ـ أي : كأنه يقول : أمتعنا به يا رسول الله ، أي : أطل لنا عمره ، حتى نتمتع به . سِيَّما والقائل ذلك عمر رضي الله عنه . سِيَّما ورسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم لم ينكر عليه شيئاً ـ فهي كلمة تُعبر عما هنالك مِن معانيها ، كما كان رحمه الله تعالى يحتج على المخالفين في جواز التوسل ، يحتج عليهم بإجماع الصحابة على التبرك والاستشفاء ، والاسترحام والاستنصار بآثار النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

فإن قال القائل : إنّ الاستغاثة إنما تكون من الأحياء لشعورهم بالاستغاثة ، ولتمكنهم من الإغاثة ، وأما الأموات فهل هم يُحِسُّون ويشعرون ؟ فكيف تصح منهم الإغاثة ؟ .

فالجواب :

أولًا ـ لقد ثبت أن الأنبياء أحياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ، فقد ورد في (صحيح) مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الإسراء ، قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يُصلي ، فإذا برجل ضَرْبٌ ، جَعد ، كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يُصلي ، أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي ، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني : نفسه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ـ فحانت الصلاة ، فَأَمَمْتُهم ـ أي : صار فيهم إماماً ـ فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد هذا مَالك صاحب النار فَسَلّم عليه ، فَالتَفَتَ إليَّ فبدأني بالسلام » .

فهذا الحديث صريح في حياة الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم ، حياة أقوى من الحياة الدنيوية ، فرآهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم يُصلون ، ثم صلّىٰ بهم إماماً ، صلاة حقيقية ، بدليل أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كان وقتئذٍ في حياته الدنيوية ، فصلّىٰ بهم حقيقة ، واقتدوا به على الحقيقة .

ثانياً ـ ثبت أن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ، فورد في (صحيح) مسلم ، والنسائي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « أتيت ليلة أُسْرِيَ بي على موسى قائماً يُصلي في قبره ؛ عند الكثيب الأحمر » .

وروى البيهقي ، وأبو يعلىٰ ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال

رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون » قال العلامة المناوي : وهو حديث صحيح .

وروى الدارمي بإسناده ، عن سعيد بن عبد العزيز قال : لما كان أيام الحرة ، لم يُؤذن في مسجد النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ثلاثاً ، ولم يُقَمْ ـ أي : تُرِك الأذان والإقامة ثلاثة أيام ـ ولم يَبرح سعيد بن المسيب من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يَسمعها من قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وللإمام الحافظ البيهقي رسالة خاصةٌ في حياة الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين .

ثالثاً ـ أخبر الله تعالى عن حياة الشهداء فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآيات . ومن المعلوم أن مقام الشهادة مُنتظم في سلك مقام النبوة ، سيما على قول حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم نال الشهادة الظاهرة والباطنة .

رابعاً ـ ثبت أن الصلاة عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم تُعْرَضُ عليه ، وهذا دليل حياته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، وإلا فكيف تعرض على من لا يعي ولا يسمع . فقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم وصححه ، عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « مِنْ أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خُلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عَلَيَّ مِنَ الصلاة فيه ، فإنَّ صلاتكم معروضة عَلَيَّ » .

قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ ـ يعني : بليت ـ .

فقال : « إن الله عز وجل حَرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وروى ابن ماجه بسند جيد ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قال : « أكثروا عَلَيَّ مِن الصلاة يوم الجمعة ، فإنّه مشهود ، تشهده الملائكة ، وإنَّ أحداً لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إلَّا عرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها » .

قال : قلت : وبعد الموت ؟

فقال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » عليهم الصلاة والسلام .

وروى البيهقي ، والأصبهاني ، عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قال : « إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم عَلَيّ صلاة في الدنيا ، مَنْ صلّىٰ عليّ يوم الجمعة قضى الله له مائة حاجة ، سبعين من حوائج الآخرة ، وثلاثين من حوائج الدنيا ، يُوكل الله بذلك ملكاً يُدخلها في قبري ، كما يُدخل عليكم الهدايا ، يخبرني مَنْ صَلّى عَلَيّ باسمه ونسبه إلى عشيرته ، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء » .

هذا وقد ثبت في حديث التشهد أن يقول المصلي : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

أفتقول إنَّ هذا سلام على من ليس به حياة ولا إدراك . كلا بل هو صلّىٰ الله عليه وآله وسلم حَيٌّ حَيٌّ .

وقد ثبت في الشرع زيارة الأموات والتسليم عليهم عامة ، وما ذلك إلا لأنهم يسمعون ، وَيُحِسُّون ويشعرون بزيارة الزائر ، بل قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في قتلى المشركين يوم بدر : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » الحديث وقد تقدم . فما بالك بالمؤمنين فإنهم يسمعون وَيعُون

ويشعرون .

فإن قال قائل : سَلَّمْنا أنهم أحياء ، فهل تأتي منهم منفعة لأهل الدنيا ؟ .

قلنا في الجواب :

أولًا ـ تَقدم في الحديث الذي رواه البيهقي وابن أبي شيبة بسند صحيح ، عَن مالك الدار ـ وكان خازن عمر رضي الله عنه ـ ، قال : أصاب الناس قحط زمان عمر رضي الله عنه ، فجاء رجلٌ إلى قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، فشكى له وقال : (يا رسول الله استسق لأمتك ، فإنهم قَد هلكوا) فأتاه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في المنام فقال : « ائت عمر ، وأقرئه السلام ، وأخبره أنهم مُسقون » الحديث . فهذه منفعة ظاهرة ، وإجابة كريمة منه صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

وتقدم أمر السيدة عائشة رضي الله عنها بفتح النوافذ فوق قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ، لما شكى الناس إليها القحط ، ففعلوا ذلك فمطروا مطراً شديداً ، وما وصل ذلك الخير إليهم إلا من سيادته صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

ثانياً ـ جاء في الحديث الذي رواه البزار بالسند الجيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أنه قال : « حياتي خير لكم تُحدِثون وَيُحدَث لكم ، ووفاتي خير لكم ، تُعرض عَليّ أعمالكم ، فما رأيت مِن خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » قال الحافظ : إسناده صحيح ، وقال الحافظ الهيثمي : رجال إسناده رجال الصحيح .

فأيُّ منفعة وأيّ خير أعظم من هذه المنفعة ، والخير الواصل منه إلى

أمته ، وهو استغفاره صلّىٰ الله عليه وآله وسلم حين يُعرض عليه عمل المسيء ، فيستغفر له صلّىٰ الله عليه وآله وسلم على حسب حال ومقام ذلك العامل .

وقد تَقدمت قصة الأعرابي عن العلامة العتبي لَمَّا جاء إلى قبر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم .

ثالثاً ـ روى الإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم ، فإنْ كان خيراً استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تُمِتْهُمْ حتى تهديهم كما هديتنا » .

وروى أبو داود الطيالسي ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم : « إنَّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم في قبورهم ، فإنْ كان خيراً استبشروا ، وإنْ كان غير ذلك قالوا : اللهم أَلْهِمْهُمْ أن يعملوا بطاعتك » .

وروى ابن أبي الدنيا ، عن بلال ابن أبي الدرداء قال : كنت أسمع أبا الدرداء وهو ساجد يقول : (اللهم إني أعوذ بك أن يَمْقُتَني خالي ابن رواحة إذا لقيته) .

أي : جَنِّبْنِيْ العمل السَّيئَ حتى لا يُعرض عليه فَيمقتني حين ألقاه .

فدلت هذه الأحاديث على أن الأحياء ينتفعون بدعاء الأموات ، وتوجهاتهم إلى ربهم تعالى .

رابعاً ـ أنزل الله تعالى آيات كريمة ، تبين فضل الشهداء ، وما أعد الله لهم من الأجر والكرامة ، وما أعطاهم من الرتبة والمكانة ، وما أعطاهم الله من الحياة الكاملة ، أنزل تلك الآيات تنشيطاً لهمة المجاهدين ؛ حتى

لا يَجْبُنُوا عن القتل في سبيل الله تعالى ، ولا يزهدوا في الجنة ، ولا ينكلوا عند الحرب . كل ذلك كان بسبب أن شُهداء أحد لما أعطاهم الله تعالى من الكرامة ما أعطاهم ، واجتمعوا يتحدثون بذلك ، فذكروا إخوانهم في الدنيا ، وأحبوا أن يوصلوا إليهم خيراً يَسرهم ، وينهض بهمتهم ، ويقوي دواعي عزيمتهم إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، والقتل في ذلك ، حتى رأوا أنْ يبعثوا واحداً منهم بهذه البشائر ، فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ الآيات فهي نازلة إلى هذه الأمة بسبب أولئك الشهداء .

فقد روى أبو داود ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه : « إنه لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خضر ، تَرد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وَمَقِيْلهم ، قالوا : مَنْ يُبَلِّغ إخواننا أنَّنا أحياء في الجنة نرزق ؛ لئلا يزهدوا في الجنة ، ولا ينكلوا عند الحرب .

فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ » الآيات .

وقد تناولت أطرافاً من البحث حول التوسل والاستغاثة ، وذكرت جُملة موجزة من الأدلة ، ومن أراد التوسع في ذلك ، فهناك كتب مُصنفة في ذلك ، صنفها علماؤنا السابقون أولو الفضل والتحقيق ، والعلم والتدقيق ، جزاهم الله تعالى عن المسلمين خيراً .

❊ ❊ ❊

تنبيه وتذكير

قد يقول بعض الناس متعجباً أو منكراً لتوسلي في الدعاء بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مناسبات متعددة ، فهل هناك دليل على ذلك؟

فالجواب أن الله تعالى قال: في وصفه لموسى الكليم: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ فأثبت الله الوجاهة لموسى عليه السلام عند الله فموسى عليه السلام ذُو وجاهة عظيمة ، ومكانة كبيرة عند الله تعالى.

وقال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ فأثبت الله تعالى لعيسى عليه السلام الوجاهة في الدنيا والآخرة ، فهو ذُو وجاهة عظيمة عند الله تعالى.

فإذا كان الأمر كذلك ، فلا ريب ولا شكَّ أنَّ الوجاهة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة هي ثابتة قطعاً من باب أولى لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو إمام الأنبياء والمرسلين، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، ولا شك أنّ وجاهته صلى الله عليه وآله وسلم التي أعطاها الله تعالى إياه هي أعظم من وجاهة كل وجيه عند الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فإنَّه أحبُّ الخلق إلى الله تعالى ، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى قطعاً.

روى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا ، ولواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» أي: يقول ذلك صلى الله عليه وآله وسلم تحدُّثنا بنعمة الله تعالى عليه.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنتُ أنا إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر» رواه الترمذي.

وفي الحديث الذي رواه الدارمي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلاَ وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أوّل شافع وأوَّل مشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أوَّل من يحرِّك بحلق الجنة ولا فخر ، فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر».

وروى الدارمي في (سننه) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا قائد المرسلين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وأنا أوَّل شافعٍ وأوَّل مشفَّع ولا فخر».

فأعظم الوجهاء عند الله تعالى ، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرحم الله تعالى القائل:

إلَهي توسَّلنا بجاه محمدٍ ﷺ لعُليـاكَ فـي أمـرٍ تَعسَّـر حَلُّـه
إذا ضاق صدري والهموم تزايدتْ فليس لها إلاّ الذي عمَّ فضله
آمين

قال الحافظ المنذري: الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها:

ثم روى عن عثمان بن حُنيف رضي الله عنه (أَنَّ أعمى أَتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ادعُ الله أَنْ يكشف لي عن بصري.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْأدعُك» أي: بأن يتركه فيصبر ويعظم له أجره.

فقال: يا رسول الله إنه شقَّ عليَّ ذهاب بصري.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فانطلق فتوضأ، ثم صَلَّ ركعتين ثم قل:

اللهم إني أسألكَ وأتوجَّه إليك بنبيك محمد ﷺ نبيِّ الرحمة، يا محمد إني أتوجَّه إلى ربي بك أَنْ يكشف لي عن بصري، اللهم شَفِّعْهُ فيَّ».

فرجع وقد كشف الله عن بصره).

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي واللفظ له، وابن ماجه، وابن خُزيمة في صحيحه، والحاكم وقال: على شرطهما.

قال: وليس عند الترمذي «ثم صل ركعتين» وإنما قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يدعو بهذا الدعاء فذكره بنحوه ثم قال

الحافظ المنذري: ورواه الطبراني وذكر في أوله قصة:

وهو أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في حاجة له، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ـ أي: لكثرة اشتغاله في أمور الرعية العامة ـ فلقي الرجل عثمان بن حنيف، فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حُنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ات المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّ الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي» وتذكر حاجتك، ورُح إليَّ ـ أي: ائتني ـ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان بن حنيف، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال له: حاجتك؟

فذكر حاجته، فقضاها له عثمان بن عفان، ثم قال له: ما كانت لك من حاجة فائتنا ـ أي: حتى نقضيها لك.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله تعالى خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليَّ حتى كلمتَـهُ فيَّ؟

فقال له عثمان بن حنيف: والله ما كلمته فيك، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْتصبر»؟

فقال: يا رسول الله إنّه ليس لي قائد ـ أي: يقوده ويمشي معه ـ وقد شق عليَّ.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلِّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات».

فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قَطُّ.

قال الطبراني بعد ذكر طرقه: والحديث صحيح. اهـ.

وعزاه في (الجامع الصغير) إلى الترمذي وابن ماجه والحاكم.